

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٦٣ - سورة المنافقون

مدنية وآياتها إحدى عشرة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ)

[٢] (اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ، إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)
 « إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ »
 أى أن الأمر كما قالوه « وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ » أى فى قولهم (نَشْهَدُ)
 وادعائهم فيه مواطاة قلوبهم ألسنتهم ، لأنهم أضربوا غير ما أظهروا « اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ »
 أى حلفهم الكاذب ، أو شهادتهم هذه ، فإنها تجرى مجرى الحلف فى التوكيد « جُنَّةً »
 أى وقاية من القتل والسبي ، « فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ » أى دينه الذى بعث به رسوله
 صلوات الله عليه ، وشريعته التى شرعها لخلقهم « إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » أى فى
 اتخاذهم أيمانهم جُنَّةً ، وصددهم ، وغير ذلك من أعمالهم .

تنبيه :

فى (الإكليل) : استدلل بالآية أبو حنيفة على أن (أشهد بالله) يمين ، وإن لم ينو معه ،
 لأنه تعالى أخبر عن المنافقين أنهم قالوه ، ثم سماه (أيماناً) انتهى .
 قال الناصر : وليس فيما ذكره دليل ، فإن قوله (اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً) غايته أن ما ذكره
 يسمى يميناً ، وليس الخلاف فى تسميته يميناً ، وإنما الخلاف : هل يكون يميناً مفقداً يلزم
 بالحنث فيها كفارة أم لا ؟ وليس كل ما يسمى حلفاً أو قسمًا يوجب حكماً . ألا ترى أنه لو
 قال : أحلف ، ولم يقل : بالله ، ولا بغيره ، فهو من محال الخلاف فى وجوب الكفارة به ،
 وإن كان حلفاً لغة باتفاق ، لأنه فعل مشتق منه . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

- [٣] (ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ)
- [٤] (وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ، وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ ، كَأَنَّهُمْ خُشْبٌ مُسْنَدَةٌ ، يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ، هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ ، قَاتِلْهُمْ اللَّهُ ، إِنَّي يُؤَفِّكُونَ)

« ذَلِكَ » أى مانعهم من مساوئهم « بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا » أى ظاهراً « ثُمَّ كَفَرُوا » أى سرّاً « فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ » أى ختم عليها بما مروا عليه من التلون والتذبذب ورسوخ الهيات المنكرة ، فحجبوا عن الحق « فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ » أى حقية الإيمان ، وحكمة الرسالة والدين « وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ » أى لتناسب أشكالهم ، وحسن مناظرهم وروائهم « وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ » أى للين كلامهم بما يدهنون فيه « كَأَنَّهُمْ خُشْبٌ مُسْنَدَةٌ » أى فى الخلو عن الفائدة ، لأن الخشب إنما تكون مسندة إذا لم تكن فى بناء ، أو دعامة لشيء آخر .

قال القاشانى : روى عن بعض الحكماء أنه رأى غلاماً حسناً وجهه ، فاستنطقه لظنه ذكاً ، وفطنته ، فاجد عنده معنى ، فقال : ما أحسن هذا البيت لو كان فيه ساكن ! وهذا معنى قوله (كَأَنَّهُمْ خُشْبٌ مُسْنَدَةٌ) أى أجرام خالية عن الأرواح ، لا تنفع فيها ولا تمر ، كالأخشاب المسندة إلى الجدران عند الجفاف ، وزوال الروح النامية عنها ، فهم فى زوال استعداد الحياة الحقيقية ، والروح الإنسانى ، بمثابة .

« يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ » قال ابن جرير^(١) : أى يحسب هؤلاء المنافقون ، من خبثهم ، وسوء ظنهم ، وقلة يقينهم ، كل صيحة عليهم ، لأنهم على وجل أن ينزل الله فيهم أمراً يهتك

(١) انظر الصفحة رقم ١٠٧ من الجزء الثامن والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

به أستارهم ويفضحهم ، ويبيح للمؤمنين قتلهم ، وسبى ذراريهم ، وأخذ أموالهم فهم من خوفهم من ذلك ، كلما نزل فيهم من الله وحى على رسوله ، ظنوا أنه نزل بهلاكهم وعطيهم . وقال القاشاني : لأن الشجاعة إنما تكون من اليقين من نور الفطرة . وصفاء القلب ، وهم منغمسون في ظلمات صفات النفوس ، محتجبون باللذات والشهوات ، أهل الشك والارتياب ، لذلك غلبهم الجبن والخور .

« هُمُ الْعُدُوُّ فَاحْذَرُهُمْ » قال القاشاني : فقد بطل استعدادهم ، فلا يهتدون بنورك ولا تؤثر فيهم صحبتك « قَتَلَهُمُ اللَّهُ أَنْتَ يَوْفَكُونَ » أى كيف يصرفون عن الحق ، مع وضوح مناره . و (قاتل) بمعنى لعن وطرده ، وهو دعاء أو خبر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥] (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّأْ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ)

« وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ » أى : هلموا إلى التوبة والإنابة مما فرط منكم ، وذاع من أفاعيلكم ضد المؤمنين « لَوَّأْ رُءُوسَهُمْ » قال ابن جرير^(١) أى : حركوها وهزوها استهزاء برسول الله ﷺ وباستغفاره . وبتشديد الواو من (لَوَّأْ) قرأت القراء على وجه الخبر عنهم ، أنهم كرروا هز رؤوسهم وتحريكها وأكثروا . إلا نافعاً ، فإنه قرأ ذلك بتخفيف الواو ، على وجه أنهم فعلوا ذلك مرة واحدة .

« وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ » أى يعرضون عما دعوا إليه ، « وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ » أى : عن المصير إلى الرسول والاعتذار .

قال القاشاني : لضراوتهم بالأمور الظلمانية ، واعتيادهم الكالات البهيمية والسبعية ، فلا يألون النور ، ولا يشاقون إليه ، ولا إلى الكالات الإنسانية ، لسخ الصورة الذاتية .

(١) انظر الصفحة رقم ١٠٨ من الجزء الثامن والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦] (سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ ، لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ،
إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ)

«سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ» قال القاشاني
لرسوخ الهيآت الظلمانية فيهم ، وزوال قبول استعداداتهم للهداية ، لفسقهم وخرجوهم عن
دين الفطرة القويم . وهذا معنى قوله تعالى : « إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ » .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧] (هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنْفَضُوا ،
وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ)

«هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنْفَضُوا» أى : حتى
تصيبهم مجاعة ، فيتفروا عنه . يعنون فقراء المهاجرين .

قال القاشاني : لاحتجاجهم بأفعالهم عن رؤية فعل الله ، وبما في أيديهم عمافي خزائن الله ،
فيتوهمون الإنفاق منهم ، لجهلهم .

«وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ» أى : من يبيده
خزائنها ، رازقهم منها ، وإن يحل المنافقون .

لطيفة :

قال الشهاب : قوله تعالى (هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ . . .) الخ تعليل لرسوخهم في الفسق ،
لا لعدم المغفرة . لأنه معلل بما قبله . وقوله : (عَلَىٰ مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ) الظاهر أنه حكاية
ما قالوه بعينه ، لأنهم منافقون مقرون برسالته ظاهراً ، ولا حاجة إلى أنهم قالوه تهكماً ، أو
لغلبة عليه ، حتى صار كالعلم ، كما قيل . ويحتمل أنهم عبروا بغير هذه العبارة ، فغيرها الله
إجلالاً لنبيه ﷺ وإكراماً . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨] (يَقُولُونَ لَيْنِ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَا الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلُّ ،

وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ)

« يَقُولُونَ لَيْنِ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَا الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلُّ ، وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ

وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ » أى : لكان غرورهم وجهلهم

وشدة ارتياهم .

تنبيهان :

الأول - قال ابن جرير^(١) : عنى بهذه الآيات كلها - فيما ذكر - عبدالله بن أبي ابن سلول .

وذلك أنه قال لأصحابه : لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا . وقال : لئن رجعنا إلى

المدينة ليخرجنا الأعز منها الأذل . فسمع بذلك زيد بن أرقم ، فأخبر به رسول الله ﷺ ، فدعاه

رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسأله عما أخبر به عنه ، فحلف أنه ما قال ! وقيل له : لو أتيت

وسول الله صلى الله عليه وسلم فسألته أن يستغفر لك ، فجعل يلوى رأسه ويحركه استهزاء ،

ويعنى بذلك أنه غير فاعل ما أشاروا به عليه ، فأنزله الله عز وجل فيه هذه السورة من أولها

إلى آخرها .

ثم أورد ابن جرير الروايات في ذلك . وتقدمه الإمام البخاري ، فأسندها من طرق .

ويجمعها كلها ما رواه ابن إسحاق في غزوة بنى المصطلق : أن النبي صلى الله عليه وسلم لقيهم

على ماء لهم يقال له (المريسيع) وأظفره الله بهم . قال : فبينما الناس على ذلك الماء ، وردت

واردة الناس ، ومع عمر بن الخطاب أجير له من بنى غفار ، يقال له (جهجاه) ، يقود فرسه .

فازدحم جهجاه وسنان الجهني حليف بنى عوف بن الخزرج ، على الماء فاقتتلا ، فصرخ الجهني :

(١) انظر الصفحة رقم ١١٣ من الجزء الثامن والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

يامعشر الأنصار ! وصرخ جهجاه : يامعشر المهاجرين ! فغضب عبد الله بن أبيّ ابن سلول ، وعنده رهط من قومه ، فيهم زيد بن أرقم ، غلام حدث ، فقال : أوقد فعلوها ؟! قد نافرنا وكاثرونا في بلادنا ! والله ! ما أعدّنا وجلايب قريش هذه إلا كما قال الأول : سمن كلبك يأكلك ! أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل . ثم أقبل على من حضر من قومه فقال لهم : هذا ما فعلتم بأنفسكم ! أحللتهم بلادكم ، وقاسمتهم أموالكم . أما والله لو أمسكتهم عنهم ما بأيديكم ، لتحولوا إلى غير داركم . فسمع ذلك زيد بن أرقم ، فشى به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وذلك عند فراغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من عدوّه ، فأخبره الخبر ، وعنده عمر بن الخطاب . فقال : مرّ به عباد بن بشر فليقتله . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فكيف ، يا عمر ، إذا تحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه ؟ لا ! ولكن أذن بالرحيل ، في ساعة لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يرتحل فيها . فارتحل الناس ، وقد مشى عبد الله بن أبيّ ابن سلول إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حين بلغه أن زيد بن أرقم قد بلغه ما سمع منه ، خلف بالله ما قلت ما قال ولا تكلمت به . وكان في قومه شريفاً عظيماً . فقال من حضر رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأنصار من أصحابه : يارسول الله ! عسى أن يكون الغلام قد أوهم في حديثه ، ولم يحفظ ما قال الرجل - حدّبا على ابن سلول ودفعاً عنه .

قال ابن إسحاق : فلما استقل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لقيه أسيد بن حضير ، فحياه بتحية النبوة ، وسلم عليه ، ثم قال : يانبي الله ! والله لقد رحت في ساعة منكراً ، ما كنت تروح في مثلها . فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : أو ما بلغك ما قال صاحبكم ؟ قال وأى صاحب يارسول الله ؟ قال : عبد الله بن أبيّ ! قال : وما قال ؟ قال : زعم أنه إن رجع إلى المدينة أخرج الأعز منها الأذل ! قال : فأنت يارسول الله ، والله ، تخرجه منها إن شئت . هو ، والله ، الدليل وأنت العزيز . ثم قال : يارسول الله ! ارفق به .

فوالله لقد جاءنا الله بك ، وإن قومه لينظّمون له الخرز ليتوّجوه ، فإنه يرى أنك قد استلبته ملكاً ، ثم مشى رسول الله صلى الله عليه وسلم يومهم ذلك ، حتى أمسى ، وليلتهم حتى أصبح ، وصدرَ يومهم ذلك حتى آذتهم الشمس ، ثم نزل بالناس ، فلم يلبثوا أن وجدوا مس الأرض ، فوقعوا نياماً . وإنما فعل ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ليشغل الناس عن الحديث الذي كان بالأمس من حديث عبد الله بن أبي . ثم راح رسول الله صلى الله عليه وسلم بالناس ، وقدم المدينة ، ونزلت السورة التي ذكر الله فيها المنافقين ، في ابن أبي ، ومن كان على مثل أمره ، فلما نزلت أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بأذن زيد بن أرقم ، ثم قال : هذا الذي أوفى لله بأذنه اه .

وكانت غزاة بني المصطلق هذه ، في شعبان سنة خمس ، كما في (زاد المعاد) . وزعم قوم أن هذه المقالة كانت في غزوة تبوك . قال الحافظ ابن حجر : وقع في رواية محمد بن كعب عن زيد بن أرقم عند (النسائي) أنها غزوة تبوك . ويؤيده قوله في رواية زهير : في سفر أصاب الناس فيه شدة . وأخرج عبد بن حميد بإسناد صحيح عن سعيد بن جبير مرسلًا ، أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا نزل منزلاً لم يرتحل منه حتى يصلي فيه . فلما كان غزوة تبوك ، نزل منزلاً ، فقال عبد الله بن أبي : فذكر القصة .
والذي عليه أهل المغازي أنها غزوة بني المصطلق . ويؤيده قول جابر ، بعد قوله صلى الله عليه وسلم لعمر : (دعه لا يتحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه) .

وكانت الأنصار أكثر من المهاجرين حين قدموا المدينة ، ثم إن المهاجرين كثروا بعد . فهذا مما يوضح وهم من قال : إنها كانت بتبوك ، لأن المهاجرين حينئذ كانوا كثيراً جداً . وقد انضافت إليهم مسلمة الفتح في غزوة تبوك ، فكانوا حينئذ أكثر من الأنصار انتهى . وسبقه ابن كثير حيث قال : وقوله - أي ابن جبير - إن ذلك كان في غزوة تبوك ، فيه نظر ، بل ليس بجيد ، فإن عبد الله بن أبي ابن سلول لم يكن ممن خرج في غزوة تبوك ، بل

رجع بطائفة من الجيش . وإنما المشهور عند أصحاب المغازى والسير ، أن ذلك كان في غزوة الريبيع ، وهي غزوة بنى المصطلق . انتهى .

التنبيه الثاني - قال الزمخشري : معنى قوله تعالى : (وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ) الخ أى : الغلبة والقوة ، ولن أعزه وأيده من رسوله ومن المؤمنين . وهم الأخصاء بذلك . كما أن المذلة والهوان للشيطان وذويه من الكافرين والمنافقين .

وعن بعض الصالحات - وكانت في هيئة رثة - أَلَسْتُ على الإسلام ، وهو العز الذى لاذل معه ، والغنى الذى لا فقر معه ؟

وعن الحسن بن على رضى الله عنهما ؛ أن رجلاً قال له إن الناس يزعمون أن فيك تيهًا؟ قال : ليس بتيه ، ولكنه عزة وتلا هذه الآية . انتهى .

قال الرازى : قال بعض العارفين فى تحقيق هذا المعنى : العزة غير الكبر ، ولا يحل للمؤمن أن يذل نفسه ، فالعزة معرفة الإنسان بحقيقة نفسه ، وإكرامها عن أن يضعها لأقسام عاجلة دنيوية . كما أن الكبر جهل الإنسان بنفسه ، وإزالتها فوق منزلها . فالعزة تشبه الكبر من حيث الصورة ، وتختلف من حيث الحقيقة ، كاشتباه التواضع بالضعفة ، والتواضع محمود ، والضعفة مذمومة . والكبر مذموم ، والعزة محمود . ولما كانت غير مذمومة ، وفيها مشاكلة للكبر ، قال تعالى (١) (بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ) وفيه إشارة خفية لإثبات العزة بالحق ، والوقوف على حد التواضع ، من غير انحراف إلى الضعة ، ووقوف على صراط العزة المنسوب على نار الكبر .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ

ذِكْرِ اللَّهِ ، وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ)

[١٠] (وَأَنْفِقُوا مِنْ مَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ

رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِنَ الصَّالِحِينَ)

[١١] (وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا ، وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ)

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ» أي :

لا يشغلكم الاغتياب بها عن ذكر أمره ونهيه ، ووعدته ووعيده ، أو ذكر ما أنزله وأوحى به .

ومنه أن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين . فإن مقتضى الإيمان أن لا يبالي المؤمن بعزة المال والولد ،

مع عزة الله «وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ» أي المغبونون حظوظهم من كرامة الله

ورحمته ، كما قال سبحانه ^(١) (وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ

الْفَاسِقُونَ) . «وَأَنْفِقُوا مِنْ مَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ

فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ » أي أنصدق وأخرج حقوق مالي

«وَأَكُن مِنَ الصَّالِحِينَ» * وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا » أي لن يؤخر في أجل

أحد إذا حضر ، ولكن يخترمه .

قال القاشاني : معنى قوله (لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ)

إن صدقتم في الإيمان ، فإن قضية الإيمان غلبة حب الله على محبة كل شيء ، فلا تكن محبتهم

ومحبة الدنيا ، من شدة التعلق بهم وبالأموال ، غالبة في قلوبكم على محبة ، فتحتجبوا بهم

عنه ، فتصيروا إلى النار ، فتخسروا نور الاستعداد الفطري بإضاعته فيما يفنى سريعا ،

وتجردوا عن الأموال بإنفاقها وقت الصحة والاحتياج إليها ، ليكون فضيلة في أنفسكم ،

وهيأة نورية لها، فإن الإتفاق إنما ينفع إذا كان عن ملكة السخاء، وهيأة التجرد في النفس .
فأما عند حضور الموت ، فالمال للوارث لا له ، فلا ينفعه إتفاقه ، وليس له إلا التحسر
والتندم ، وتغنى التأخير في الأجل بالجهل ، فإنه لو كان صادقاً في دعوى الإيمان ، وموقناً
بالآخرة لتيقن أن الموت ضرورى ، وأنه مقدر في وقت معين قدره الله فيه بحكمته ، فلا
يمكن تأخره .

« وَاللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ » أى : بأعمالكم ونياتكم . فلا ينفع الإتفاق في ذلك الوقت
ولا تغنى التأخير في الأجل ، ووعد التصدق والصلاح ، لعلمه بأنه ليس عن ملكة السخاء ،
ولا عن التجرد والزكاء ، بل من غاية البخل وحب المال ، كأنه يحسب أنه يذهب به معه ،
وبأن ذلك التمنى والوعد محض الكذب، ومحبة العاجلة، لوجود الهيأة المفاية للتصدق والصلاح
في النفس ، والميل إلى الدنيا ، كما قال الله تعالى^(١) (وَلَوْ رُدُّوْا لَعَادُوْا لِمَا نُهُوْا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ
لَكَاذِبُونَ) - والله أعلم - .

تنبيه :

قال الإمام إلكيا الهراسي : يدلّ قوله تعالى (وَأَنْفِقُوا مِنْ مَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ
يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ ...) الآية ، على وجوب إخراج الزكاة على الفور ، ومنع تأخيرها .
وأخرج الترمذى^(٢) عن ابن عباس قال : من كان له مال يبلغه حج بيت ربه ، أو يجب
عليه فيه زكاة ، فلم يفعل ، سأل الرجعة عند الموت . فقيل له : إنما يسأل الرجعة الكفار ،
فقال : سأتلو عليكم بذلك قرآنا . ثم قرأ هذه الآية .

(١) [٦ / الأنعام / ٢٨] .

(٢) أخرجه في : ٤٤ - كتاب التفسير ، ٦٣ - سورة المنافقين ، ٥ - حدثنا عبد بن حميد ،